

منهم ابن جني في كتابه

"التنبيه على شرم مشكلات الحماسة"

قراءة ومراجعة: د. عبد الكريم مجاهد

الجامعة الهاشمية

ديوان الحماسة لأبي تمام (ت ٢٣١هـ) من أشهر الاختيارات الشعرية العربية، وتميزت عن غيرها من الاختيارات الأخرى، كالمفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب، بأن المقطوعات الشعرية فيها جاءت مبنوّة على الموضوعات أو المعاني التي بلغت عشرة أبواب، أولها باب الحماسة الذي سمي به أبو تمام المجموعة كلها؛ من تسمية الكل باسم الجزء، وتلته أبواب: المراثي، والأدب والنسيب والهجاء والأضياف والصفات والسيّر والنعاس والمُح وآخرها باب النساء. وقصة جمع ديوان الحماسة أصبحت معروفة، فهي كما أوردها التبريزي^(١) أن أبا تمام قصد خراسان ليمدح عبدالله بن طاهر وتمّ له ذلك ورجع قافلاً إلى العراق، واستضافه في همدان أبو الوفاء بن سلمة ولكن الثلج، التي وقعت، أجبرته على البقاء والمكوث في بيت ابن سلمة الذي رحّب به وقال له: وطن نفسك على الإقامة، وأحضر له خزانة كتبه التي أخذ يطالع ما فيها ويصنف مما اختاره؛ فاجتمع له كتابا الحماسة والوحشيات. وظل ديوان الحماسة عند آل سلمة يضمنون به ويتمكن من الظفر به منهم أبو العوادل من أهل دينور، الذي حمّله إلى أصبهان فاشتهر بين أدبائها. وشاع أمر الديوان بين الناس فيما بعد وتناوله النقاد والدارسون، وعكفوا على دراسته وشرحه وتفسيره. وطارت شهرة هذه المجموعة فنسج على منوالها، تبويهاً وتسميةً، كثير ممّن صنّف في الاختيارات الشعرية بعد ذلك كحماسة البحتري والحماسة الشجرية والحماسة البصرية^(٢).

ونالت حماسة أبي تمام ثقة اللغويين فصارت عندهم مصدراً للاستشهاد والاحتجاج في اللغة. وصارت محلاً لعناية النقاد والدارسين والمصنفين في الأدب فاتجهوا إلى شرحها وبيان مستغلقها؛ وتتوَّعت اتجاهاتهم ومناهجهم في تناولها؛ وقد أورد حاجي خليفة في كشف الظنون^(٢) واحداً وعشرين شرحاً، ذكرها غير مرتبة، وهذه الشروح مرتبة تاريخياً كالآتي:

- ١- شرح أبي بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ).
- ٢- شرح أبي بشر الأمدى صاحب الموازنة (ت ٣٧١ هـ).
- ٣- شرح أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ).
- ٤- شرح أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ).
- ٥- شرح أبي المظفر الهروي (ت ٤١٤ هـ).
- ٦- شرح المرزوقي (ت ٤٢١ هـ).
- ٧- شرح الخطيب الإسكافي (ت ٤٢١ هـ).
- ٨- شرح ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ).
- ٩- شرح أبي القاسم الفسوي (ت ٤٦٧ هـ).
- ١٠- شرح أبي الفضل الميكالي (ت ٤٧٥ هـ).
- ١١- شرح عبدالله الساماني، أو الشاماتي كما في كشف الظنون (ت ٤٧٥ هـ).
- ١٢- شرح الأعلام الشنتمري (ت ٤٧٦ هـ).
- ١٣- شرح عبدالله الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ).
- ١٤- شرح التبريزي (ت ٥٠٢ هـ).

١٥- شرح البيهقي (ت ٥٤٤ هـ).

١٦- شرح ابن ملكون الإشبيلي (ت ٥٨٤ هـ).

١٧- شرح العكبري (ت ٦١٦ هـ).

١٨- شرح أبي سعد (سعيد) الكاتب النحوي (ت ٧١٤ هـ).

١٩- شرح الأسترايادي (ت ٧١٧ هـ).

٢٠- شرح ابن أبي الدميك الحلبي (أبي نصر منصور بن مسلم) مجهول تاريخ الوفاة، ولم أجد في تاريخ بغداد ٤٥٣/٢ وسير أعلام النبلاء ٢٢٧/١٤ سوى ابن أبي الدميك البغدادي، وهو أبو العباس محمد بن طاهر بن خالد بن أبي الدميك (ت سنة ٣٠٥ هـ).

٢١- شرح أبي نصر قاسم بن محمد الواسطي، ولم أعثر له على ترجمة.

وهناك شروح أخرى لم يأت حاجي خليفة على ذكرها، ولكن ابن جني (في الورقة ١- أ) من المخطوط، ذكر ثلاثة منها لأبي رياش الشيباني (ت ٣٣٩ هـ) والديمرتي (مجهول تاريخ الوفاة)، والنمري (ت ٣٨٥ هـ). وقد تتبع الشروح الدكتور حسين محمد نقشه^(٤) فأوفاهها على واحد وأربعين شرحاً بزيادة عشرين شرحاً على ما أورده حاجي خليفة.

وأكثر الشروح إفادة من شرح ابن جني شرح التبريزي؛ الذي كان أحياناً كثيرة يصرح بذكر أبي الفتح، وشرح المرزوقي الذي تجاهل صاحبه الإشارة إلى ما أفاده من ابن جني، وأما خزانة الأدب للبغدادي فقد رصدت فيها أكثر من مئة وخمسة وعشرين موضعاً نقل فيها عن ابن جني، ويذكر بصريح العبارة: قال ابن جني في إعراب الحماسة في معظم نقوله عنه.

اللغة العربية عندنا، نحن العرب، وسيلة وغاية، ولا يخالجنني شك في أن ابن جني، رحمه الله، أحد أئمة اللغة الذين تعهدوا لغتنا الشريفة بجهدهم ونذروا

حياتهم لتطبيق هذه المقولة فكراً وعملاً؛ فقد تعبد في محرابها تقرباً لله عز وجل، فملك عليه عقله وشغفت وجدانه، فتوافر له بذلك مطلب حيوي من حبها جعله يسخر لها ما يمتلكه من قوة نظر عقلية، وما يتميز به من سعة إحاطة لغوية، وما يمتاز به من دقة بصر في جوانبها، فباحث له بأسرارها ومكنته من فض مغاليق ما يشكل من أصواتها وصرفها ونحوها في مصنفات قد تصل إلى خمسين كتاباً منها الخصائص وسر الصناعة والمنصف والتمام. ولما كانت أصوات اللغة وصرفها ونحوها هي محل البحث والدرس اتخذها ابن جني موازين للكلام، شكلاً ومضموناً، لأنه لا يستقيم معناه (أي الكلام) ومبناه إلا بمراعاة أحكامها؛ فجاء شرحه للحماسة حافلاً بقضايا هذه الجوانب.

وقد حدد ابن جني هدفه وغايته في مقدمة كتابه التنبيه على شرح مشكلات الحماسة حين قال فيها (الورقة ١-أ): "أجبتك... إلى ملتصك من عمل ما في الحماسة من إعراب، وما يلحق به من اشتقاق أو تصريح أو عروض أو قوافٍ، وتعاميت شرح أخبارها أو تفسير شيء من معانيها إلا ما ينعقد بالإعراب فيجب لذلك ذكره... ولم أر أحداً تعرض لعمل ما فيه من صنعة إعراب" فقد كان دقيقاً في بيان غايته وتحديد هدفه فلم يوجه عنايته إلى المعاني المعجمية للمفردات ولا إلى شرح الأبيات الأدبي إلا ما اقتضته ضرورة الشرح وفض الإشكال. وتحاشى الحكايات المصاحبة للأشعار وأخبار أصحابها، وتعامل مع النصوص بيتاً بيتاً في بحث جاد وجلد لا يفتر عن الجزئيات النصية، صوتاً وصرفاً ونحواً، التي تتضافر لتكوين الأفكار وتوجيه المعاني؛ وكأن الفكر في نظره صورة لمعاني النحو والصرف. وهو بتركيزه على الجانب اللغوي ببحثه عما استغلق في الأبيات من بنى صرفية، وما أشكل فيها من دقائق نحوية كان أميناً مع نفسه مخلصاً لفنه الذي يتقنه واختصاصه الذي يتفوق فيه، ولعله لم يرد تكرار تجربته في تفسير ديوان المتنبي الذي كان أكثر قصده واشتغاله فيه بمعاني المفردات وشرح الأبيات ولم يتخل بالطبع عن التعليقات اللغوية، صرفية كانت أو نحوية، حتى أنه يحيل إلى بعض المسائل اللغوية التي شرحها في تفسيره هذا، كقوله مثلاً في التنبيه (الورقة ٢٥-أ): "وقد أكثرت على هذا ونحوه في شرح تفسير المتنبي"، وأفهم حذر

ابن جني ضمناً من خلال المآخذ التي وجهها، فيما بعد، ابن معقل الأزدي (ت ٦٤٤ هـ) لشرح ديوان المتنبي في كتابه "المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي"، الذي تضمن نقداً لشروح خمسة من مشاهير شراح ديوان أبي الطيب وهم ابن جني والمعري والتبريزي وأبو اليمن الكندي والواحدي. ويذكر أن ابن جني في شرحه لديوان المتنبي "قد طوّل في الشواهد وقصّر في المعاني"^(٥) وبعد استعراضه لكثير من المواضيع المتعلقة بفهم مفردات اللغة عند ابن جني يسخر منه بجرأة وبقسوة مثيرة للاستهجان بقوله: "ما كان أغناك عن التعرض لشرح معاني الشعر، وأنت فيها بهذه المنزلة، وأحوج هذا الديوان إلى غيرك! ولو كان تصرفك بالمال كتصرفك في المعاني، لكان ينبغي أن يُخجّر فيه عليك ويُؤخذ به على يدك، ولقد أخطأت سبيل هذا المعنى، وتجاوزت طريقه؛ فأنت في واد وهو في واد".^(٦)

وإذا رجعنا إلى مضمون كتاب التنبيه كما جاء في مخطوطاته، التي تيسر لي الحصول على خمسة منها، قرأت منها مخطوط مكتبة السلمانية التركية برقم ٩٦٦- من مكتبة يكي جامع، ويتألف من ٢٣٨ ورقة، كل ورقة من صفحتين طبعاً، وستكون الإشارة إليه في كل ما سأورده، نجده قد وجّه اهتمامه بشكل رئيس وطاغ إلى الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية، وإن كانت الأبنية الصرفية ووجوه الإعراب هي الغالبة على البحث والتحليل في هذا المصنف، في أسلوب يجمع بين جانبي التنظير والتطبيق، مع مزج بين الدرسين الصرفي والنحوي في أحيان كثيرة؛ ولغاية منهجية أرى تقسيم المشكلات أو المسائل التي تناولها إلى الآتي:

أولاً: المسائل الصوتية: وهي أقل الجوانب التي التفت إليها، وهو الذي نعرف عنه أنه من أكثر أئمة اللغة عناية بالقيمة التعبيرية للحرف العربي، ومن أكثر المتحمسين لفكرة الصلة بين الصوت والدلالة فقد فتح لحضور المعنى أو الإحساس في الحرف العربي عدة أبواب في كتابه الخصائص؛ نظراً لما يحمله في نظره من شحنة دلالية. ويبدو أن هذه النظرة إلى هذه العلاقة بين المعنى أو الفكر وبين الصوت لم تستوف حقها في ذهن ابن جني إلا في أثناء تأليف كتاب

الخصائص الذي تأخر في تصنيفه كما يشير في كتاب التنبيه في (٦٨-أ) حين يقول في نهاية شرحه لإحدى المسائل "قاعرف ذلك أصلاً من أصول فقه العربية، وسنذكر هذا وغيره فيما أجمعناه من إنشاء كتاب نذكر فيه فقه أصول الكلام في هذه اللغة على طريق أصول الكلام والفقه، بعون الله"، ولا أظنه يقصد كتاباً آخر غير كتاب الخصائص.

ومما تكلم فيه من الظواهر الصوتية في العربية الإتياع في الورقة (٦٠-أ)، والتخفيف في المماثلة (الإبدال الصوتي) في الورقة (٦١-ب)، وعن الإشباع في الورقة (٨٠-أ)، وكذلك في الورقة (١٢٤-أ).

ومن المواضع التي يتضافر فيها الصوت مع الدلالة في رأي ابن جني، ويوجّه الصوت الكلمة نحو مقصودٍ معيّن ما ذكره في الورقة (٨٧-ب) في بيت من حماسية الفند الزمّاني:

يا طعنة ما شيخ كبير يفن بالي

حيث قال: "يفن ضعيف وهو قريب من لفظ الأفن ومعناه، وذلك أن الأفن العيب... والضعف ضرب من ضروب العيب، غير أن العيب أغلظ أمراً من ضعف الشيخ... فلما كان العيب أقبح في الحقيقة من الهرم؛ اختاروا له أقوى الحرفين أعني الهمزة؛ ألا تراها أقوى من الياء، فبين الحرفين من الصوت ما بين العيبين من القبح"، فهل هناك توظيف للصوت في أداء المعنى وتوجيهه أقوى من هذا؟! ويضرب أمثلة كثيرة لمثل هذه الظاهرة الصوتية من شفافية الأصوات العربية وطاققتها التعبيرية التي تجعل لها هذا الحضور القوي والتأثير الحيوي في نقل الفكر والإحساس. ويجب التنويه هنا أن ابن جني لا يفعل هذه الدلالات الرمزية للأصوات، ولا يفسرها قسراً من خلال بحثه عن الفروق الدلالية التي تظهرها هذه الأصوات في الاستعمال اللغوي وعلى أرض الواقع، ولم يفصل الأصوات في تحليله عن سياقها في بنيتها الصرفية.

ثانياً: القضايا الصرفية: إذ كانت الصيغ الصرفية وأصولها الاشتقاقية هي الشغل الشاغل لابن جني في كتابه "التنبيه" وأستطيع أن أقول، وأنا مطمئن، إنه لم تكد تتدّ عنه مسألة في أبواب التصريف، وغلب على معالجته التحليل الشكلي للبنى الصرفية وقد تأتي الإشارة إلى المعنى عَرَضاً، ويمكنني تبويب المسائل الصرفية التي تناولها كالآتي:

أ- اهتمامه بالأصول الاشتقاقية للبنى الصرفية: ومن أمثله الواضحة قوله في بيان أصل كلمة شيبان في بيت الحماسية: (من ورقة ٢-أ):

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان

"إن الشيبان ظاهره أنه فعّالان من شاب يشيب، وقد يحتمل أن يكون غير هذا وهو أن تجعله شاب يشوب؛ أي خلط، فإن قلت لو كان منه لكان شوبان كحوران وخولان! فالجواب أنه يمكن أن يكون فيعلان منه كهيبان وتيحان؛ وأصله على هذا: شوبان، فلما اجتمع الواو والياء على هذه الصورة قلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء فصارت شيباناً ثم إن العين حذفت تخفيفاً كحذفهم إياها من هين وميت فبقيت شيبان، ومثله قولهم من كلام العرب ريحان وريح ريذانة، قال ابن ميادة:

أهاجك المنزل والمحضر أوردت به ريذانة صرصر

وينتقل بعد ذلك إلى تحليل ريذانة وبيان أصلها ووزنها ويأتي بشاهد من شعر ذي الرمة فيه مثال آخر هو قيديد ومفرده قيدود وأصله قيدود ووزنه فيعلول، ثم يستشهد للأخيرة بمثال آخر نقله عن المبرد الذي أتى له بشاهد في المقتضب ١٢٥/١ وهو كلمة كينونة وأصلها كيؤونة التي تصير كيؤونة ثم ينقل عن سيبويه وأبي علي كلمة ديمومة وجعلها دياميم على وزن فيعلول وفياعيل، وهكذا يتدرج بنا في التعليل والتحليل والتقريب وضرب الأمثلة اعتماداً على السماع والقياس دون ملل حتى آخر الصفحة أ من الورقة ٥ التي ينهيها

بقوله: "وهذا وجيه ما، ولكن الأجود الأقوى ما قد قدّمناه من كونه فعلاً من الشيب فاعرفه".

ونهجه التدريجي هذا يبدو بما انتهت إليه البنية الصرفية ثم يُسَلِّمُك فيه المثال إلى مثال آخر وينتقل بك من تعليل إلى تعليل ومن قياس إلى آخر ومن سماع إلى آخر، محتجاً لوجهة نظره بالشواهد وتأييدها بأقوال العلماء السابقين له والمعاصرين؛ ولا مانع لديه أن يعرض لمسائل أخرى في ثنايا بحثه لدعم وجهة نظره؛ كتعرضه مثلاً في هذه المسألة لتشبيه التصغير (التحقير) بجمع التكسير في حدوث التغيرات فيهما (انظر الورقة ٤- ص أ).

ب- اهتمامه بالتفرقة بين الصيغ الاشتقاقية المتشابهة بالمثل أو الوزن وترجيح المقصود من الصيغة التي تحتل أكثر من وجه بالقرينة والبرهان والدليل كقوله في بيت الحماسية الذي جاء (في ورقة ٥٧- أ):

لكان لي مضطرباً واسعاً في الأرض ذات الطول والعرض

"المضطرب ها هنا لا يخلو من أن يكون مكاناً أو مصدراً؛ ووصفه بالسعة يجتذبه إلى معنى المكان؛ فإذا كان كذلك لم تتعلق به" في "من موضعين: أحدهما: إن المكان لا يعمل إنما ذاك المصدر. والآخر: أنه لو يعمل في غير هذا الموضع لما جاز أن يعمل هنا من قبل أنه قد وصف بواسع، وإذا وُصف بعُد عن شبه الفعل، لاختصاصه بالوصف". وهكذا: رجّح أن تكون صيغة مضطرب اسم مكان وليس مصدراً من خلال دورها النحوي، ويكون بذلك قد استعان بالوظيفة النحوية لخدمة الدرس الصرفي.

وأحياناً يذكر الخلاف في نوع الصيغة بين العلماء ثم يبدأ بترجيح أحد الآراء بما يمتلكه من زاد لغوي يوظفه في التمييز والترجيح كالذي أورده في بيت الحماسية (الورقة ١٥- ب).

وفارس في غمار الموت منغمس إذا تألى على مكروهة صدقا

فقد ذكر خلاف سيبويه والأخفش في صيغة "مكروهة" فقال: "مكروهة
تحتل خلاف الرجلين سيبويه وأبي الحسن؛ فمذهب صاحب الكتاب أنه وصف
لموصوف محذوف... ومذهب أبي الحسن أنه مصدر جاء على مفعول... وكان
تأنيث المكروهة يشهد لقول صاحب الكتاب، وذلك أن تأنيث الصفة أشيع وأسير
من تأنيث المصدر....".

ج- عنايته بحلول الصيغ محل غيرها في المعنى والاستدلال على ذلك
بالنقل، أي باستخدام الشواهد في مثل بيت الحماسية (في ورقة ١٢- ب).

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكمُ لشيءٍ ولا أني من الموت أفرق

حيث يقول (في ورقة ١٣- ص أ): "تخشعت بمعنى خشعت، وقد جاء
تَفَعَّلَ في معنى فَعَلَ، نحو قول الله تعالى: "(الجبار المتكبر)" (٢٣- الحشر)، أي
الكبير، ولا يكون المتكبر هنا كالمتعاطي للشيء نحو: تَقَيَّسَ... إذا انتسب إلى
قيس، ونحوه: تشجّع وتصبّر، تعالى الله عن ذلك. لكن المتكبر ها هنا بمعنى
الكبير البتة، وعليه بيت الكتاب:

ولا يشعُرُ الرَّمْحُ الأصمُّ كعوبِهِ بثروة رَهْطِ الأبلَجِ المتَظَلِّمِ

د- وقد كان للبناء الشكلي للصيغ نصيب وافر في معالجات ابن جني
الصرفية كاهتمامه بالحرف الزائد أو الأصلي في الألفاظ كتأصيله نون برهان
(في ورقة ٨- أ). وعنايته بذكر أوزان الألفاظ نحو وزن يبدون، إذا كان للإنبات
فوزنه يَفْعُلْنَ، وإذا وجّه للرجال فوزنه يفعلون (ورقة ١٠٣- ص أ). كذلك
اعتنى بالإبدال والإعلال خاصة قلب الواو همزة كأحد في وَحَدَ (٧٢- ب)،
وأوائل في أوائل (٥٠- أ).

هـ- أما تخصيصه الحديث عن معاني الصيغ فلم يكن ليفته كذلك؛
كحديثه عن صيغة تفعّل مثلاً وأنها للكثرة كما في قوله (في ورقة ٣٢- ب):
"التَّفعُّل يأتي للكثرة نحو التَّرماء والتَّلْعاب" (والترماء من المراماة بالنبل). كذلك

التفت إلى ما تؤديه المورفيمات المقيّدة (دوال النسبة) من معانٍ في البنى
الصرفية كمعاني تاء التانيث في جموع التكسير (في ٧٣- ب، و ٧٤- أ) فقد
تأتي للنسب نحو الأشاعنة والمهالبة، والتانيث نحو الصياقلة والملائكة، كذلك
تكلم عن معنى القلة في الواو والنون والألف والتاء في الجمع السالمين
(في الورقتين ٩٢- ب، ٩٣- أ).

وهناك موضوعات تصريفية متفرقة كتصغير الترخيم في مثل زهير
تصغير أزهر (في الورقات ٩٢- أ، و ٢٩- ب، و ٣٠- أ، و ٦٤- أ)، كذلك
اهتمامه باللغات الواردة في الكلمة الواحدة نحو عل (في ١٧- ب)، وعلوان
وعنوان (في ١٠٤- ب) ونحو ذو الطائية (٢٢١- أ) ولغات أف (١٥٨- أ)،
واهتمامه بالجموع كفواعل جمع فاعلة (في ٤١- أ) وهنات وهنات جمع هنة
(في ٦٦- أ).

ثالثاً: القضايا النحوية: كذلك أستطيع أن أقول هنا إنه قد طرق أغلب
الأبواب النحوية في شقي النحو الواسعين: الإعراب وبناء الجملة فحقل بمسائل
النحو العربي التي لم يكن يتخذها قضايا مُسلمة بل كان يناقش ويدلي برأيه فيها،
ويمكننا تقسيم الموضوعات التي طرقها بناء على ما تقدّم إلى:

١- الصنعة الإعرابية وربطها بالمعنى: ويمكن تقريعها إلى الآتي:

أ- توجيه الإعراب توجيهاً دلالياً كالتنوين وعدمه في توجيه المعنى
بقوله (في ورقة ٨- أ): "ويصح لك بإثبات التنوين في عاقلة من قولك: لا عاقلة
عندك معنى غير معنى: لا عاقلة عندك بغير تنوين؛ وذلك إنك إذا قلت: لا عاقلة
عندك فإنما نفيت أن يكون عندك امرأة عاقلة أو مُعصِر عاقلة أو نحو ذلك من
بني آدم. وإذا قلت لا عاقلة عندك، فأثبت التنوين، فإنما تنفي أن يكون عنده
مسمى ما بعاقلة من بني آدم كان أو من غيرهم، ذكراً أو أنثى، أي لا مسمى
بعاقلة مما عندك". كذلك قد يرتب على التنوين الإعرابي الذي قد تسمح به
الحركة الإعرابية، معنى كقوله في البيت الآتي (ورقة ٨- ب):

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شدّوا الإغارة فرساناً وركبانا

"ليست الإغارة هنا مفعولاً به، ولا انتصابها على ذلك، لكن انتصابها انتصاب المفعول له؛ أي شدّوا للإغارة كقولك: حملوا للإغارة فرساناً وركبانا أي في هذه الحال..."، ومثله قوله في البيت (في ٣٢- أ):

ولا يخيم اللقاء فارسهم حتى يشقّ الصفوف من كرمه

"اللقاء هنا منصوب على الظرف كمقدّم الحاج... أي لا يخيم وقت اللقاء وحين اللقاء. ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي لا يحين للقاء، أي من أجله". ومخطوطة الكتاب تفيض بالتوجيهات الإعرابية ودلالاتها، مما يصعب حصره.

ب- تقليب الإعراب على الوجوه التي تقتضيها الصنعة النحوية دون عناية كافية بمحصول المعنى سقياً للإعراب اختباراً للمحصول العلمي عنده والنظر العقلي في جدله ومناظرته كالذي جاء عنه في توجيه الجر والرفع في قول الشاعر:

هما خطتا إما إصاراً ومنّة وإما دمّ والقتل بالحر أجدر

فقد قال في الورقة (٢٠- ص أ): "أما من جرّ إما إصاراً ومنّة، وإما دمّ فأمره واضح؛ وذلك أنه حذف النون من "خطتان" للإضافة، ولم يعتدّ "إما" فاصلاً بين المضاف والمضاف إليه، وعلى هذا تقول: هما غلاماً إما زيد وإما جعفر... فهذا وجه الجر... وفي الورقة (٢٠- ب): "وأما الرفع فطريف المذهب وظاهر أمره أنه على لغة من حذف نون التنثية لغير إضافة...". وقد يدخل الممنوع من الصرف في هذا الباب.

٢- تركيب الجملة والبناء الشكلي لها: ويشمل حديثه في الأبواب النحوية، كالعطف في الورقة (٦٦- أ)، والتعديّة في مواضع شتى في (٦٣- ب، ٩٥- ب، ٢٨- ب)، وحديثه عن جواب الشرط وتقدمه وتأخره في مواضع مختلفة كذلك في (٦- ب، ٧- أ، ٢٩- أ، ب وغيرها)، وعن الحذف والتقدير

(١١-أ) وعن البذل (نحو ٧٣-أ، ٨٣-أ، ٩٠-ب)، والتوكيد (٥٥-أ)، وزيادة الحروف للتوكيد (٨٢-ب)، والإضافة والاستثناء وزيادة حرف ما، والجملة الاعتراضية، ومتعلقات المشتقات وهي من الموضوعات التي خاض فيها كثيراً لما يترتب عليها من معانٍ في (٩-أ، ١٠-أ، ١٤-ب، ١٦-أ، ٥٦-ب، ٤٧-ب، ٤٨-ب، ٥٨-أ، ٣٥-ب). وهكذا يكون ابن جني قد سخر قدراته في معرفة وجوه الإعراب، واستقرغ جهده في ضبط اللغة بناءً وإعراباً وتركيباً.

رابعاً: ومن الموضوعات التي أعطاها اهتمامه كذلك موسيقى الأبيات وعروضها وقافيتها، وغالباً ما يشير هنا إلى كتابه المَعْرَب الذي شرح فيه قوافي أبي الحسن في هذه المواطن. وموضوعات البناء العروضي وردت في الأوراق (٢٠١-أ / ١٦٦-أ / ١٤١-أ، ب / ١٥١-ب / ١٥٢-أ وغيرها)، ويطرق في الصفحة الأخيرة منها موضوعاً دقيقاً وينوّه بأن الخليل لم يأتِ على ذكره حيث يقول في بيت الشاعر سُلَمي بن ربيعة:

إِنَّ شِوَاءَ وَنَشَوَ وَخَبِ الْبَازِلِ الْأَمُونِ

"هذه القطعة خارجة عن مثل العروض التي جاء بها الخليل، وأقرب ما تُصَرَّفُ إليه الضرب السادس من البسيط، غير أن عروضه لزمّت فعل، وكأنها محذوفة من فعولن الذي هو مخبون مفعولن، كما جاءت عروض المتقارب في كثير من الأماكن محذوفة غير أن ذلك في المتقارب أسهل منه... وفعل في هذه القصيدة أصل جزئها مُسْتَفْعِلُنْ..."

ويجدر التنويه هنا بربطه في بعض المواطن بين ترتيب أجزاء البناء العروضي والدواعي النفسية والشعورية التي ألجأت الشاعر إلى التقديم أو التأخير في القوافي حيث يقول في الورقة (١٤١-أ، ب) في معرض تحليله لبناء عروض بيت الربيع بن زياد:

وَمَجْنَبَاتُ مَا يَذْقُنْ عَذُوفاً يَقْذُقُنْ بِالْمُهْرَاتِ وَالْأَمْهَارِ

"استعمل عروض الضرب الثاني من الكامل مقطوعة من غير تصريح، وهو قبيح غير أن له عذراً ما؛ وذلك أنه تطاول بفكره إلى الضرب وقد علم أنه مقطوع فقدّم هذا القطع في العروض توطئة لما يعتقده في الضرب من القطع... أولاً تعلم ما قال أبو الحسن في تقديم العرب القافية في العروض عند التصريح، من أنه إنما فعل ذلك مسابقة إلى الأبدان بأنهم في شعر؛ لأنهم لو تمادى بهم الأمر إلى آخر البيت لطال على السامع الحديث إلى أن يأتي القافية فقدّموا القافية الأولى إيداناً بالثانية".

مصادره: لقد نقل ابن جني في تحليلاته اللغوية كثيراً من الآراء لعلماء اللغة من الذين لم يعاصروهم كالخليل (ت ١٧٥) وسيبويه (ت ١٨٠هـ) فإنه يكثر من قوله: وعليه بيت الكتاب أو صاحب الكتاب، أو يذكره باسمه مباشرة وكثيراً ما كان يذكر بإزائه الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) فيما اختلفا فيه من المسائل الصرفية ولا يذكره إلا بكنيته أبي الحسن لإجلاله له على ما يبدو كإجلاله للمازني فلا يذكره إلا بكنيته أبي عثمان وكما هو الحال مع أستاذه الفارسي أبي علي. كذلك اعتمد كثيراً على أقوال أبي عثمان المازني (ت ٢٤٦هـ) في كتاب التصريف الذي شرحه، وكذلك نقل آراء للكسائي (ت ١٨٩هـ)، والفراء (ت ٢٠٧هـ)، والمبرد (ت ٢٨٥هـ)، وثلعب (ت ٢٩١هـ)، ولا بد أن نشير كذلك إلى نقوله عن أبي زيد في نواته وعن أبي عبيدة والأصمعي.

وأكثر ما أخذ سماعاً من أستاذه أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) وله طرق عدة وكيفيات كثيرة في الرواية عنه ونقل آرائه مباشرة من فمه أو من كتبه من مثل قوله: راجعت مرات أبا علي (٥٩- أ)، وقال لي أبو علي مرة (٦٠- ب)، وأنشدنا أبو علي (٩٦- أ)، وحدثنا أبو علي (١٠٤- ب)، وقد أنشدنا أبو علي غير هذه الرواية (١٢٣- ب)، وسألت أبا علي في عدة مواضع، وقرأته على أبي علي (١٠٤- ب، ١٠٥- أ)، وتشكك مرة أبو علي (٧٦- ب)، وكان أبو علي يستحسن هذا (٩٥- ب)، وكان أبو علي، رحمه الله، يوردها (١٢٠- أ)، وكان أبو علي يطعن في الحكاية المحفوظة هنا (١٢٢- ب)،

وقرئ على أبي علي وأنا أسمع (١٠٤-ب، ١٠٥-أ)، ورأيت أبا علي في بعض كلامه في تذكرته (١١١-ب). وأكثر هذا القول ومعاقده من جهة أبي علي رضي الله عنه (٢١٦-ب)، وسألني أبو علي رحمه الله عن قول... (١٧٩-ب) فقلت يوماً لأبي علي (١٦٨-أ)؛ وأنكر أبو علي على الفراء (١٤٩-أ)، وأخبرنا أبو علي (١٥٨-أ) وعلى أن أبا علي كان ربما أجاز (١٣٠-أ).

الاستشهاد: وكانت شواهد من القرآن الكريم وأمثال العرب وأقوالهم والشعر العربي من عصور الاحتجاج من امرئ القيس إلي ابن هرمة الذي استشهد له ببيت من الشعر (في الورقة ٩٥-أ) حيث يقول مثلاً، وعليه قول ابن هرمة:

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ مِنْ يَنَالِكَ نَفْعُهُ وَمَنْ هُوَ يُعْطِي حَقَّهُنَّ الْقَصَائِدَا

ولم يفته كذلك أن يستشهد بأراجيز العرب للعجاج ورؤية. ولكن اللافت للنظر في استشهاده أنه يقول في (١١٣ ب-أ): "والمولّدون يحتج بهم في المعاني كما يحتج بالقدماء في الألفاظ" فاحتجّ بشعر لأبي تمام والبحري والمنتبي الذي أكثر من الاستشهاد بشعره ويسميه في أكثر الأحيان شاعرنا. ويجدر أن أذكر هنا أنه لم يقتصر في احتجاجه لأبي تمام والمنتبي على المعاني كما قدّ ولكنه تجاوز ذلك إلى الألفاظ واللغة؛ فقد جاء (في الورقة ١١٢-أ) في حديثه عن عطف الجملة على الجملة: "عطف الاسمية على الفعلية مع المعادلة بأم، وإذا كان جائزاً مع المعادلة كان ذلك في العطف من غير تسوية أجوز، وقد جاء بذلك المحدثون، قال الطائي الكبير (يقصد أبا تمام):

غريبة تونس الآداب وحدثها فما تحل على قوم فترتحل

كذلك الأمر مع المنتبي حيث استشهد بشعره (في الورقة ٩-ب) حيث أراد الاستدلال على صحة قول أبي الغول الطهوي:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني

حيث يقول (٩- ب، ١٠- أ): "صناعة الشعر توجب في هذا صدقوا؛ وذلك أنه قد عاد عليهم الضمير مجموعاً مذكراً، وهو: "هم" من "فيهم" ... كذا طريق الشعر ومقتضى صناعته وعليه استقر الأمر فيما بيني وبين المتنبى؛ وذلك لأنه قال: إذا أعدت الضمير بلفظ المذكرين ذكرت، وذلك قوله:

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش بابن الهيجاء يمتنع

وهذا الأمر كثير في الشعر، جائز، غير أن طريق الصنعة ما ذكرت لك".

وعلى الإجمال أستطيع أن أقول إن ابن جني فيما ساقه من شواهد كان حريصاً، دون شك، على إقامة تواصل بين أقيسة اللغة وواقعها الملموس المسموع يستدل منه على انفتاح الأبيات المشروحة على تراكيب العربية وأبنيتها الصرفية والدلالية؛ فكان هناك عمليّات تتأصل لغوية ائتلافية أو اختلافية في المضمون والشكل فيما بين النصوص العربية، قام ابن جني بإدراكها عن طريق ربطه بين الأبيات وشواهدا بما تسعفه به ذاكرته وخياله وحافظته اللغوية من قدرة على إقامة هذا النوع من التواصل الذي يتم بكيفيات مختلفة صوتية وصرفية ونحوية، على ما رأينا.

أسماء كتبه التي ذكرها: لقد أورد في ثنايا بحثه أسماء بعض كتبه التي يظهر أنه قد صنفها قبل هذا الكتاب، وهذه الكتب هي:

- شرح تصريف أبي عثمان هكذا ذكره (في ١٨٠ ب و ٢٣٢ ب).

- كتاب التمام في تفسير أشعار هذيل الذي كان يشير إليه باسم كتاب التمام وقد أورده مثلاً في الأوراق: (٥- ب، ٧- أ، ٣٢- ب، ٨٨- أ، ١١٢- ب، ١٥٩- أ).

- شرح كتاب المقصور والممدود لأبي يعقوب بن إسحق السكيت وقد يذكره أحياناً بقوله: في كتابي في شرح كتاب يعقوب أو في كتابنا في تفسير كتاب يعقوب وقد ذكره في الأوراق (٣٧-أ، ٤٣-ب، ٤٥-ب، ٦٤-أ، ٨٨-أ، ١٢٤-ب، ٩٥-ب، ١١٢-ب، ١٢٥-أ، ١٢٤-ب، ١٥٠-ب، ٢٠٥-أ، ٢١٩-أ، ٢٢٥-أ، ١٦٣-ب، ١٤٨-أ).

- المعرب في شرح قوافي أبي الحسن، ويسميه أحياناً تفسير قوافي أبي الحسن وقد ورد في الأوراق (٢٦-ب، ٣٣-أ، ٦٣-ب، ٩٥-أ، ١٠٣-أ، ١٠٤-ب، ١١٠-ب، ١١١-أ).

- كتاب المحاسن هكذا ورد فقط في (١٠٠-ب).

- تفسير شعر المتنبي هكذا ورد في (٢٥-أ)، وورد كذلك باسم تفسير ديوان المتنبي (١٤٢-ب).

- سر الصناعة هكذا ورد أيضاً في: (٢١-أ، ٤٤-ب، ٢٠٣-ب، ١٨١-ب).

أما كتاب الخصائص فلم يذكره باسمه وإنما بوصفه لأنه لم يكن قد صنّفه وإنما كان فكرة تراوده في أثناء شرحه لهذا الكتاب، ولعله حصيلة تأصيلية جمع فيها الأصول التي طرق فروعها في كتبه السابقة حيث يقول في الورقة (٨٦-أ): "فاعرف ذلك أصلاً من أصول فقه العربية، وسنذكر هذا وغيره فيما أجمعناه من إنشاء كتاب نذكر فيه فقه أصول الكلام في هذه اللغة على طريق أصول الكلام والفقه بعون الله"، و لا أظنه يريد كتاباً آخر سوى كتاب الخصائص.

وللإحاطة بكامل منهجه في تصنيفه لهذا الكتاب لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ابن جنسي في عرضه لمادة الكتاب كان انتقائياً؛ بمعنى أنه لم يقدّم بشرح جميع

المقطوعات التي وردت في ديوان الحماسة فقد اختار من باب الحماسة مثلاً ١٤٥ مقطوعة من أصل ٢٦١ حماسية وردت في هذا الباب في شرحي المرزوقي والتبريزي. كذلك كان يختار من كل مقطوعة (حماسية) بيتاً أو اثنين، ومن كل بيت يركّز اهتمامه ويعطي عناية لقضية أو إشكالية في صوت (حرفاً كان أم حركة) أو في حرف من حروف المعاني أو في كلمة أو في جملة أو في شطر وكان يُعمل فيها تحليله الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو العروضي، وهكذا يظل في دأب مستمر باحثاً عن الإشكاليات اللغوية ليقوم باستثمارها في إثارة المناقشات التي يظهر منها أنه بصري المذهب من تكراره الدائم لكلمة أصحابنا ويعني بها البصريين كمثّل قوله في (٢٣٤- أ) وهذا لا يثبت أصحابنا، وقال الكسائي فيما أظن أن أصله كيما في كما، وفي (١٦٦- ب) يذكر " ولم أر أحداً من أصحابنا نبّه على هذا الموضع، وتتضح بصريته في موضع آخر (في ١٤٠- أ) من قوله: "ظاهر أنه أكد النكرة (في خير وشر كليهما) وهذا عندنا نحن مدفوع وهو مقبول على قول الكوفيين".

في نهاية المطاف أرى أن ابن جني قد ساق في شروحه وتعليقاته وتحليلاته في كتابه " التنبيه على شرح مشكلات الحماسة" عمليات من التكامل والتفاعل بين المكونات الصوتية والصرفية والنحوية باعتبارها فعاليات المنظومة اللغوية التي تترابط وتتعلق وتتقاطع شكلاً ومضموناً؛ فتتبعث المعاني الأساسية وتتشكل من خلالها دلالات الأبيات وتتجلي أسرار العربية، ولدي إحساس قوي بأن هذا اللغوي النابه قد أخذ على عاتقه في كتابه هذا أن يبين مدى التوافق والانسجام بين البني التعبيرية والبني الدلالية في الأبيات الشعرية مهما تباينت تشكيلات اللغة صوتاً وصرفاً ونحواً وبلاغة؛ خاصة أنه يوجّه خطابه في كتابه هذا لمن كانت لديه إحاطة كافية بجوانب اللغة وقوة فهم عقلية تمكنه من النظر والتدبر في أساليبها، وهو أمر يصرّح به (في الورقة ١- ب) حيث يقول في المقدمة: " وبعد، فهذا الكتاب لست أعمله لمبتدئ ولا متوسط، وإنما أخطب به من قد تدرب فكره، وقوي نظره، وهو الذي يُغري به ويقوى حظه منه، فأما من دون ذلك فيتجافى عنه إلى مسموع يحفظه لتخف عنه كلفته وجسمه".

الهوامش

١. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، للخطيب التبريزي، بحاشية لغريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٠/١-١١.
٢. انظر: كشف الظنون ١/٦٩٢-٦٩٣ والحماسة لأبي تمام، بتحقيق د. عسيلان نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٠هـ-١٩٨١م من أجل معرفة عدد هذه الحماسيات ومؤلفيها، وكذلك شرح ديوان الحماسة المنسوب للمعري بتحقيق د. حسين محمد نقشه، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١١هـ-١٩٩١م، ١/٨-١٠ ويجدر التنبيه إلى أن ما سمي بالحماسة الشننمرية إنما هو شرح لحماسة أبي تمام ولكنها مرتبة على حروف المعجم وليس على ترتيبها المعهود في الحماسة الأصلية، وعليه فالأمر ليس على ما أثبتته د. نقشه من أنها حماسة مستقلة، محتجاً بما قام به أحد الباحثين في العراق الذي يبدو أنه لم يطلع على ما صنفه الشننمري الذي طبع فيما بعد بتحقيق د. علي المفضل حمودان.
٣. انظر: ١/٦٩١-٦٩٢ (ط دار الكتب العلمية - بيروت).
٤. انظر: له مقدمته على شرح ديوان الحماسة، المنسوب للمعري: ١١/١-١٦.
٥. كتاب المآخذ على شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العباس أحمد بن علي بن معقل الأزدي المهلب، تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م: ١/١١.
٦. السابق نفسه ١/٣٠٦-٣٠٧.